بلاغة الجواب في القرآن الكريم

أ.م.د مهدي عبد الأمير مفتن
كلية العلوم الإسلامية
qur.mahdi.abdul@uobabylon.edu.iq

الخلاصة:

يُعدّ الجواب في القرآن الكريم فنًّا جليلاً وأداة رفيعة يجمع بين إيجاز اللفظ وإصابة المعنى بطرقه المتعددة وأنواعه الكثيرة، كلٌّ حسب سياقه وحسب مبتغاه من الإقناع والتأثير والعرض، وحسب حال السائل والمتلقي. والناظر في أجوبة القرآن الكريم يلحظ أنها لا تكتفي بالمعلومة المجردة ولا بكميتها، بل تربطها بحال المتلقي وسياق السؤال، محاولة تربية الإنسان وتصحيح اعتقاداته ومساره الفكري، وإيصال الجواب إلى قلبه قبل عقله.

المقدمة

الأسلوب القرآني من أرقى الأساليب التي توصلت إليها البلاغة العربية، بل هو سمة إعجازه وسر بقائه.

يُعدّ الجواب في القرآن الكريم فنًّا جليلاً وأداة رفيعة يجمع بين إيجاز اللفظ وإصابة المعنى بطرقه المتعددة وأنواعه الكثيرة، كلٌّ حسب سياقه وحسب مبتغاه من الإقناع والتأثير والعرض، وحسب حال السائل والمتلقي. والناظر في أجوبة القرآن الكريم يلحظ أنها لا تكتفي بالمعلومة المجردة ولا بكميتها، بل تربطها بحال المتلقي وسياق السؤال، محاولة تربية الإنسان وتصحيح اعتقاداته ومساره الفكري، وإيصال الجواب إلى قلبه قبل عقله.

جاءت خطة البحث من تمهيد ومبحثين، تكفل التمهيد بتعريف الجواب لغة واصطلاحًا، والمبحث الأول جمع أنواع الجوابات في القرآن، في حين جاء المبحث الثاني ببيان بلاغة هذه الجوابات وتحليلها، ثم ختمت البحث بأبرز النتائج وقائمة المصادر.

التمهيد

الجواب ((مُرَاجَعَةُ الْكَلَامِ، يُقَالُ كَلَّمَهُ فَأَجَابَهُ جَوَابًا، وَقَدْ تَجَاوَبَا مُجَاوَبَةً. وَالْمُجَابَةُ: الْجَوَابُ))[1]، وجاء في لسان العرب: ((والجَوابُ، معروفٌ: رَدِيدُ الْكَلَامِ، والفِعْل: أَجابَ يُجِيبُ ... والإِجابةُ: رَجْعُ الْكَلَامِ، تَقُولُ: أَجابَه عَنْ سُؤَاله، وَقَدْ أَجابَه إِجَابَةً وَإِجَابًا وجَواباً ... وَالِاسْمُ الجَوابُ والجابةُ والمَجُوبةُ ... والمُجاوَبةُ وْ التَّجاوُبُ: التَّحاوُرُ. وتجاوَبَ القومُ: جاوَبَ بَعضُهم

بَعْضاً))[2] ومنه قوله تعالى ((وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ))[3] فهو المراجعة في القول[4]، والجواب ((هو الرد على استفهام أو نحوه (كلام يقتضي جوابًا)))[5] ويمكن ان نقول في تعريفه: هو ردّ الكلام على كلام يسبقه، والاصل ان يقع بعد السؤال، ويكون مطابقا له مذكورا بلسان المخاطب، ولذلك يقع في المحاورات وأساليب الاستفهام، فيأتي على ((أوجز عبارة وأخطر لفظ فينزل في البلاغة أحسن المنازل وأعجب المواقع))[6]

بعد استقراء العديد من اجوبة القران الكريم وجدت أنه لم يلتزم منهجًا واحدًا في بناء جواباته؛ بل ذهب بها مذاهبَ متعددة ولوَّنها بألوانٍ مختلفةٍ، فكان لكلّ جوابٍ سمةٌ أسلوبيةٌ اتخذت من مقتضى الحال وداعية المقام سبيلاً في اختيار مفرداته وبناء تراكيبه ووضع كل مفردة في سياقها الملائم لها المفضي إلى تأدية المعنى على ما ينبغي الحال ذكره. فجاء هذا البحث للكشف عن هذه الاساليب وما تضمنته من نكت بلاغية جاءت في سياق نظمه المعجِز.

المبحث الأول : أنواع الجوابات

حفل القران بتعدد إجاباته وتنوعها واستطعت الوقوف عند بعضها ومن ذلك:

1- جواب موصول بالسؤال مطابق له، مذكورًا بلسان المخاطَب، وهو الاصل في الجواب، ومنه قوله تعالى { قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}[7]

ومنه أيضا : { قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ }[8]

2- جواب مفصول عن السؤال ويأتي على نوعين:

أحدها ان يكون الجواب والابتداء في سورة واحدة ومنه قوله تعالى: { وَقَالُوا مَالِ هذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ}[9] ، وجوابه فيها : { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}[10]

الثاني: أن يكون الابتداء في سورة والجواب في سورة أخرى، ومنه قوله تعالى: { قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ }[11] جوابه { الرَّحْمنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ }[12].

3- جواب غير مطابق للسؤال او ما يعرف (بالأسلوب الحكيم) ويتكرر هذا النوع في نص القران كثيرًا.

4- جواب يذكر بلسان السائل ذاته؛ (لأنه من الظهور بحيث لا يجحد ولا يمارى فيه احد) ومنه قوله تعالى { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ }[13]

أو يحكى على ألسنتهم ومنه قوله تعالى { قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ }[14]

الجواب المضمر ويأتي ضمن اساليب الاستفهام المجازي عندما يكون للتقرير منه قوله تعالى{ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ }[15]

فالجواب المنتظر من السؤال المنفي في الاثبات هو: بلى أو عندما يكون للأنكار ومنه قوله تعالى { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا }[16]

فجملة (أصفاكم بالبنين) متفرعة من الآية السابقة لها (ولا تجعل مع الله اله أخر) لذا فهي رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم وإذا قدم الاسم في هذا صار الانكار في الفاعل)

جواب يقع السؤال مضمر ومنه قوله تعالى { وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }[17]

فجملة ان النفس لأمارة بالسوء وقعت جوابا لسؤال أحدثه جملة (وما أبرئ نفسي) كأنه قيل هل النفس أمارة بالسوء فقيل (ان النفس أمارة بالسوء) وهذا يسمى شبه كمال الاتصال في موضوع الفصل

جواب اوسع من السؤال وفيه يعدل المخاطب عن الاجابة على قدر السؤال لأسباب منها

أ- التوضيح ومنه قوله تعالى: { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }[18]

فهم سألوا رسول الله (ص) عما ينفقون فأجيبوا ببيانه وتوضيح مصرفه والترغيب في الانفاق

ب- تأكيد الجواب وتمكينه كقوله تعالى: { فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }[19]

ج- لان المقام يحسن فيه الاطناب ومنه قوله تعالى{ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ }[20]

قال: هي عصاي، يذكر المسند اليه (هي) في حين ان الايجاز يقتضي ان يقول (عصاي)، اي يحذف المسند إليه، وإنّما جاء ذكره هنا لبسط الكلام زيادة في التشريف وحبا في طول مناجاته لربه، وزيادة في تحقيق ذلك زاد في الجواب بقوله: { أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ }[21]

د-لبيان الامعان في المكايدة كقوله تعالى { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ }[22]

فلم يكتفوا بالجواب(نعبد اصناما) بل ((زادوا في الجواب إظهارًا للابتهاج بعبادتها والاستمرار على مواظبتها ليزداد غيظ السائل))[23]

الجواب غير المباشر وفيه لا يأتي المخاطب بالجواب صريحا بل يأتي بجملة تتضمنه ومنه قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[24]

فجملة (اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين) تضمنت الجواب على سؤالهم أي أنه لا يهزأ بهم بل تضمنها مع التعريف بهم

المبحث الثاني: بلاغة الجواب

خلصنا الي تعدد أساليب الجواب وتنوعها في نص القران الكريم وإن كل جواب فيها من سبب لحال السائل والمتلقي ومقرون بالسياق الذي يتولد فيه النص

وعليه توجب علينا:

أولا: دراسة مقتضى الحال كونه الاعتبار المناسب الذي يكون ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته وانحطاطه بعدم المطابقة له أو المقام وعناصره لتأثيرها في المعنى

المقصود من الكلام وعناصر هذا الكلام متعددة منها (المتكلم نفسه، والمستمع، وموضوع الكلام) وان مراعاه حال المتكلم تقف جنبا إلى جنب مع مراعاه حال المستمع أو (المخاطب) وإذا روعي حالها في آن واحد فلا سك في اننا نكون قد ارتقينا على القمم البلاغية التي تدانيها قيمة مراعاة الاقتصار على واحد منهما.

وثانيا: دراسة التراكيب التي تتضمن الجوابات؛ لأن دراستها تعني دراسة العلاقات بين الكلمات وفهم ما فيها من جمال، ذلك لأن اللفظة لا مزية لها خارج التركيب وأنها ((لا تتفاضل من حيث هي الالفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وان الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة معنى التي يليها أو ما اشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ))[25]

ثالثًا: دراسة السياق؛ لان بالرجوع إلى دراسته في مسائل النظم القرآني ((يثمر عن أمرين: بيان حسن النظم بمطابقة الكلام للسياق مطابقة لا مزيد عليها وبيان أثر السياق في كيفية صوغ الكلام لأداء المعنى المطلوب))[26]

وعلى هذا الاساس يمكن لسياقات الجواب في نص القران ان تولد معنى قصديا بين السائل والمجيب /بين النص والعلاقات النصية تبدأ بالكلمة وتتوزع في النص كله ضمن سياقات المقامي والحالي، وتتعد هذه المعاني بتعدد اوجه التراكيب لأن الاوجه التعبيرية إنما هي صور لأوجه معنويه متعددة) وذلك وقوع الجواب خلاف مراد السائل تنبيها له على إنه الاولى بالقصد أو ما يعرف بالأسلوب الحكيم كقوله تعالى { قال فمن رَبُّكُمَا يا موسى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خلقه ثُمَّ هَدَى }[27]

فسؤال فرعون عن الذات ولكن سيدنا موسى عليه السلام عدل في الجواب عن ذلك فجاءت أجابته بالصفات وهي اجابة تفضي إلى:

أولا: ((اثبات الربوبية لجميع الموجودات جريا على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم في مجموعها قياس فأن فرعون من جملة الاشياء فهو واصل في عموم كل شيء ... والمعنى: تأمل وانظر هل انت اعطيت الخلق أولا، فلا شك في انه يعلم انه ما اعطى كل شيء خلقه، فاذا تأمل علم ان الرب هو الذي أفاض الوجود والنعم على الموجودات كلها، فآمن به بعنوان هذه الصفة وتلك المعرفة الموصولة إلى الاعتقاد الحق))[28]

ثانيا: للإيجاز لأنه لو جاء بالجواب على قدر السؤال لكان: ربنا الله، ولتطلب ذلك سؤالا آخر: ومن الله؟ ولذلك يقول الزمخشري: ((ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن القى الذهن ونظر بعين الانصاف وكان طالبًا للحق))[29] فهو في غاية البلاغة لاختصاره واعرابه عن الموجودات بأسرها ولهذا بهت فرعون فانصرف عن الموضوع فقال (فما بال القرون الأولى) قاصدا من ذلك التشغيب على موسى حيث صحته بأن ينقله إلى الحديث عن القرون الأولى فهل هم في عذاب، فأن قال انهم في عذاب ثارت ثائرة ابنائهم فصاروا اعداء لموسى وان قال انهم في سلام نهضت حجة فرعون، لأنه متابع لدينهم ولذلك عدل سيدنا موسى عليه السلام ثانية بالإجابة عن مضمون السؤال فقال (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) وهو جواب صالح للاحتمالين ((فعلى الاحتمال الأول: يكون موسى صرف عن الخوض فيما لا يجري فيه مقامه ذلك الذي هو المتمحض لدعوة الاحياء لا للبحث عن احوال الاموات الذين أفضوا إلى عالم الجزاء ... وعلى الاحتمال الثاني: يكون موسى قد عدل عن ذكر حالهم خيبة لمراد فرعون وعدولا من الاشتغال بغير الغرض الذي جاء لأجله))[30] ومن بديع نظم القران في جواباته الخارجة عن نسق السؤال ومضمونه قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام وهو يحاور فرعون:

{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ}[31]

ففرعون استفهم عن حقيقة رب العالمين إذ ان حرف (ما) الغالب فيه يكون للسؤال عن حقيقة الأسم الذي بعده[32]، غير ان سيدنا موسى عليه السلام اختصر في الأجابه على ما يستدل عليه من أفعاله الخاصة به، فبذكره السموات والأرض وعموم ما بينها حثل بيان حقيقة المسؤول عنه بـ(ما)، ليعرفه انه ليس بشيء مما شوهد وعُرف من الأجرام والأعراض، وإنما هو شيء مخالف لجميع الاشياء، وأنه ليس كمثله شيء[33] كما عمد إلى حذف ((المبتدأ في ثلاث مواضع قبل ذكر الرب أي: هو رب السموات، والله ربكم، والله رب المشرق لأن موسى (عليه السلام) أستعظم حال فرعون واقدامه على السؤال تهيبا وتفخيما))[34] فجاء الحذف افخم من الذكر وازيد في الافادة ((هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تبن))[35]؛ ولان الاكتفاء بالصفات الدالة على المحذوف ستلفت نظر المتلقي، فتثير الحسّ، وتنشط الخيال، وتنبه العقل لإدراك حقيقة الاله من هذه الصفات فتكون أكثر استجابة للإقناع والإمتاع.

وهذا نسق قرآني يتكرر كثيرًا ينبه فيه القرآن السائل إلى خطئه، ويوجه التوجيه الصحيح الذي كان ينبغي أن يكون عليه السؤال.

ولغرض احتواء مقالة المخاطِب يعمد المخاطَب إلى نشر الجواب ليحقق للجواب وضوحا، وشمولا كافيين في رد الخصم وابطال دعواه كقوله تعالى: { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }[36]

فمقالة مشركي قريش للنبي محمد (صلى الله عليه وآله) تضمنت استنزالهم بإنزال الذكر عليه أولاً، وللدلالة على صدقه طالبوه ثانيًا بإتيان الملائكة[37] ولذلك جاء الجواب أولاً بأبطال ما طالبوه ثانيًا (إتيان الملائكة) لإزالة جهالتهم، ثم جاء قوله تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }[38] لإبطال كلامهم المستهزئين به، فجاء نشر الجوابين على عكس لف المقالين اهتماما بالابتداء يرد المقال الثاني لما فيه من الشبهة بالتعجيز والإفحام[39].

وإذ نجد هذا التغايير بين بنية السؤال والجواب المتمثل بخروج الجواب عن نسق السؤال خروجًا يقتضيه المعنى نجده احيانًا يطابق بينهما تطابقًا محكومًا بعبارة السائل، من ذلك كقولة تعالى: { قَالَ أَنظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ}[40]، وقال تعالى: { قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ }[41].

جاء الجواب في سورة الأعراف (إنك من المنظرين) دون الفاء وفي سورة الحجر و ص جاء بالفاء، فقال: (فإنك من المنظرين) وفي ذلك مسألتان:

الأولى: عدول النص القرآني عن أن يكون الجواب: انظرتك أو أجبت لك

الثانية:عدم اقتران الفاء بالجواب في الاعراف واقترانها في سورتي الحجر و ص.

والجواب عن المسألة الأولى، أنه لو قال: أنظرتك أو أجبت لك، لكان ذلك إجابة لطلب ابليس، وهذا غير حاصل؛ لأنه أهون على الله من أن يجيب له طلبًا ، وهذه هي نكتة العدول، أما تأكيد الجواب بأنَّ والإخبار بصيغة (من المنظرين) للدلالة على أن أنظاره أمر قد قضاه الله تعالى وقُدّر قبل سؤاله، أي أن الجواب إخبار عن أمر تحقق قبل السؤال[42].

وأما الجواب عن المسألة الثانية فاقتران الفاء في السورتين؛ لأن الجواب بُني على السؤال (قال ربّ فأنظرني)، ولمّا خلا السؤال من الفاء بالأعراف خلا الجواب منه، فالعطف بالفاء؛ لانَّ كلَّ قول منها اشارة الكلام الذي قبله فتفرع عنه ((فهو معطوف على السؤال تعطف الكلام على الكلام الذي يقتضيه، لا عطف الإيجاب على السؤال؛ لأنَّ الله لا يجيب عاصيًا مثله إلى ما يسأله، فدخول الفاء في الموضعين لتقدم ذكر اللعن))[43]

وهذا نسق قرآني يتكرر كثيرا ينبّه فيه القرآن السائل إلى خطئه، ويوجهه التوجيه الصحيح الذي كان ينبغي أن يكون عليه السؤال.

وتتآزر القرائن السياقية للكشف عن قيمة الحذف في جملة الجواب حذفًا يضفي إلى توجيه المعنى حسب هذه القرائن وحال المتلقي، كقوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }[44]

وقوله تعالى: { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ }[45]

جاء جواب الكافرين بالرفع (أساطير الأولين) فوقع خبرً ا لمبتدأ محذوف تقديره: (هو اساطير الاولين) وجاء جواب الذين اتقوا بالنصب (خيرًا) فوقع مفعولاً به لفعل محذوف تقديره (أنزل خيرًا) يقول الزمخشري في بيان ذلك: ((فأن قلت لِمَ نصب هذا ورفع الاول، قلت: فصلاً بين جوابِ المقرّ وجوابِ الجاحدِ، يعني إن هؤلاء لما سُئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بيّنًا مكشوفًا مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيرًا. وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: (هو اساطير الاولين) وليس من الإنزال في شيء))[46] فهم سمَّوه منزلاً على التهكم أو على الفرض، أي على تقدير انّه منزل فهو أساطير لا تحقيق فيه[47]. أما المتقون فقد سُئلوا عن القرآن ولم يترددوا في الكشف عن حقيقته. فجاء الجواب بليغًا في الآيتين؛ لأنّه تضمن في الأولى بيان نوع هذا الكلام وإبطال أن يكون منزلاً من عند الله، لأن اساطير الأولين معروفة والمنزل من عند الله شأنه أن يكون غير معروف من قبل، وفي الثانية جاء الجواب بالنصب (خيرًا) فجعلوها معموله لـ (أنزل) الواقع في سؤالهم فدلّ النصب على أنّهم مصدقون بأن القران منزل من عند الله[48]. فانظر إلى دقة الجواب وملاءمته لحال كلّ منهما و وقوعه على ما ينبغي الحال ذكره.

وعلى الرغم من اتفاق الالفاظ يولد السياق للنص بنية جوابية متغايرة، تقوم على حذف المسند مرّة وذكره مرّة أخرى، فتشعر بأهمية كل منهما في بيان الدلالات المتحققة لكل بنية، كقوله تعالى: { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }[49]،

وقوله تعالى: { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ }[50].

الآيتان تعرضان لمواقف المشركين وتناقضهم بين الاعتراف وعدمه في خلق السموات والارض، ولتباين سياق الآيتين تباين الجواب. ففي الاولى تطلّب السياق الحسم وسرعة الرد، فحذف المسند (الفعل) وكذلك جيء بالفاعل (المسند اليه) بلفظ الجلالة مباشرة (الله). أما سياق الآية الثانية فتطلب البسط والعرض للإقناع بعظمة الله وقدراته، فذكر المسند الفعل (خلقهن) لتأكيد هذا الخلق وإقراره، ولبيان مزيد من عظمة الخالق، جيء بالمسند اليه (العزيز العليم) لدلالته على القدرة وقوة الارادة والإحاطة الشاملة فيتضاعف احساس المتلقي بعظمة الخالق[51].

ولتغير بنية نص السؤال يعدل نص القرآن عن جواب فيضمره اكتفاءً بدلالة السؤال، كقوله تعالى على لسان النبي إبراهيم (عليه السلام): { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ }[52]

وقوله تعالى: { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ }[53]

فجاء في الأولى بـ(ماذا) في قوله (ماذا تعبدون) وفي الثانية بـ(ما) في قوله (ما تعبدون)، جاء في تفسير درّة التنزيل: ((للسائل ان يسأل عن زيادة (ما) في قوله في الصافات (ماذا

تعبدون) واخلاء (ما) في الشعراء منها. الجواب أن يقال: ان قوله (ما تعبدون) معناه أي ش[1]يء تعبدون؟ وقوله (ماذا) في كلام العرب على وجهين:

أحدهما: ان تكون (ما) وحدها اسمًا و(ذا) بمعنى (الذي) والمعنى: ما الذي تعبدون؟ وتعبدون صلة لها. والآخر: أن تكون (ما) مع (ذا) اسمًا واحدًا بمعنى: (أي شيء)، وهو في الحالين أبلغ من (ما) وحدها إذا قيل ما تفعل؟

فما تعبدون في سورة الشعراء إخبار عن تنبيه لهم؛ لأنّهم أجروا مقاله مجرى مقال المستفهم، فأجابوه وقالوا: (نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين)، فنبه ثانيًا بقوله: (هل يسمعونكم إذ تدعون). وأما (ماذا تعبدون) في سورة الصافات فإنها تقريع وهو حال بعد التنبيه، ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لم يجيبوا كإجابتهم في الأول. ثم اضاف تبكيتًا إلى تبكيت ولم يستدع منهم جوابًا فقال: {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}))[54].

إن تباين سياق الآتين أفضى إلى انقطاع الجواب في الصافات؛ لأنّه مقام تقريع وتحدي ومجابهه قوية وظهوره في الشعراء لأنه مقام استفهام

ولغرض توليد مزيد من الدلالات للتراكيب وشحنها بإيحاءات أخرى لا يقف نص القرآن الكريم عن مطابقة الجواب للسؤال، بل يتجاوزه لتحقيق ذلك، كقوله تعالى: { قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ }[55].

فهم لم يريدوا بسؤالهم أن يقَرَّ بأن كسر الاصنام قد كان، ولكن يقرَّ بأنه منه كان[56] فعدل النبي إبراهيم (عليه السلام) عن الجواب بأسناد الفعل إليه مباشرة، وانما سلك مسلكًا تعريضيًّا قصد الزامهم الحجة. جاء في الزمخشري: ((هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا اذهان الراضة من علماء المعاني،

والقول فيه ان قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر إلى الصنم، وانما تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم))[57] على الطف وجه واحسنه مع حملهم على التأمل في شأن الهتهم ولزيادة تحقيق ذلك قال فسألوهم على سبيل الاستهزاء وإقامة الحجة وهذا من رموز الكلام.

النتائج

1- الجواب هو مراجعة القول والكلام، والأصل فيه أن يكون بعد السؤال.
2- لا يوجد منهج واحد وثابت في جوابات القرآن الكريم، فهي متعددة بحسب مقتضى الحال والمقام.
3- يراعي القرآن الكريم في جواباته حال السائل ووضعه النفسي.
4- بعض أجوبة القرآن الكريم مختصرة جدًا وبعضها مفصّلة وواسعة لأغراض بلاغية كثيرة.
5- بعض أجوبة القرآن الكريم مطابقة للسؤال متفرعة منه، وبعضها مفصولة عن السؤال وغير مطابقة له.
6- يشحن القرآن الكريم جواباته بمزيد من الدلالات للتراكيب المستعملة، وتشحنها بإيحاءات لا تقف عند مطابقة الجواب للسؤال؛ بل تتجاوزه لتحقيقها.

1

قائمة الهوامش

[1] مقاييس اللغة: 491/1.

(2) لسان العرب: 283/1-284 .

(3) سورة البقرة: 186.

(4) ينظر: مختار الصحاح: 118/1 .

(5) المعجم المفصل في اللغة والأدب: 541/1 .

(6) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 84/3 .

(7) سورة التحريم: من: 3 .

(8) سورة يوسف: 71-72 .

(9) سورة الفرقان: من: 7 .

(10) سورة الفرقان: من: 20 .

(11) سورة الفرقان: من: 60 .

(12) سورة الحمن: 1-2 .

(13) سورة سبأ: من: 24 .

(14) سورة المؤمنون: 84-85 .

(15) سورة الضحى: 6 .

(16) سورة الإسراء: 40 .

(17) سورة يوسف: من: 53 .

(18) سورة البقرة: 215 .

(19) سورة آل عمران: 52 .

(20) سورة طه: 17-18 .

(21) سورة طه: من: 18 .

(22) سورة الشعراء: 69-71 .

(23) الإتقان في علوم القرآن: 2/ 371 ، وينظر: البرهان في علوم القرآن: 4/ 45.

(24) سورة البقرة: 67 .

(25) دلائل الإعجاز: 41 .

(26) دلائل الإعجاز: 48 .

(27) سورة طه: 49-50 .

(28) التحرير والتنوير: 16/ 232-233 .

(29) تفسير الكشاف: 3/ 67 .

(30) التحرير والتنوير: 16/ 234 .

(31) سورة الشعراء: 23-28 .

(32) ينظر: التحرير والتنوير: 19/ 116.

(33) ينظر: تفسير الكشاف: 3/ 307 .

(34) البرهان في علوم القرآن: 107/3، وينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/ 232 .

(35) دلائل الإعجاز: 146/1 .

(36) سورة الحجر: 6-7 .

(37) ينظر: البحر المديد: 78/3 .

(38) سورة الحجر: 9 .

(39) التحرير والتنوير: 20/14 .

(40) سورة الأعراف: 14-15 .

(41) سورة الحجر: 79-80 .

(42) ينظر التحرير والتنوير: 8ب/45-46 .

(43) درّة التنزيل وغرّة التأويل: 578/2 .

(44) سورة النحل: 24 .

(45) سورة النحل: من: 30 .

(46) تفسير الكشاف: 603/2 .

(47) ينظر: البحر المديد: 3/ 120 .

(48) ينظر: التحرير والتنوير: 141/14 .

(49) سورة الزمر: 38 .

(50) سورة الزخرف: 9 .

(51) ينظر: في ظلال القرآن: 3731/6 .

(52) سورة الصافات: 85-86 .

(53) سورة الشعراء: 70-71 .

(54) درّة التنزيل وغرّة التأويل: 1/ 965-966 .

(55) سورة الأنبياء: 62-63 .

(56) ينظر: دلائل الإعجاز: 113/1، و الإيضاح في علوم البلاغة: 71/3، و تفسير الآلوسي: 62/9 .

(57) تفسير الكشاف: 124/3 .

المصادر:

1- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974م.

2- الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: 739هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.

3- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، الطبعة: 1419 هـ.

4- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م.

5- البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ.

6- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ.

7- درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (المتوفى: 420هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م.

8- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ)،المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ.
9- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: 745هـ)، المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1423 هـ.
10- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ)، دار الشروق – بيروت– القاهرة، ط السابعة عشر – 1412 هـ.
11- كتاب دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: 471هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة 1413هـ – 1992م.
12- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1407 هـ.
13- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1414 هـ.
14- مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م.
15- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى 1408 هـ – 1988 م.
16- المعجم المفصل في اللغة والأدب، د. إميل بديع يعقوب، د. ميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1987م.

17- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر،1399هـ - 1979م.
18- الموسوعة القرآنية، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (المتوفى: 1414هـ)، مؤسسة سجل العرب.